

ميزان النقد الأدبي عند ابن قتيبة

محمد مفيض الرحمن

مقدمة:

إن التراث النقدي الأدبي العربي القديم يعتبر المصدر الأصلي من مصادر النقد الأدبي الحديث ، يعتمد عليه الناقد ويعتز به . وقد مر النقد الأدبي بمراحل كما هو شأن أي علم من العلوم ينشأ وينمو ويتطور. والنقد الأدبي العربي ولو كان قد نشأ منذ العصر الجاهلي، وتطور تطوراً كبيراً في القرن الرابع الهجري، فإن القرن الثالث الهجري كان له أثر عظيم في تطور النقد الأدبي العربي من مرحلة قديمة إلى مرحلة جديدة . وكان لعلماء اللغة العربية وآدابها دور هام، في حركة النقد الأدبي، ولا سيما أبو محمد عبدالله بن مسلم المعروف بابن

قتيبة، هذا العالم اللغوي الأديب عاش حياته كلها في القرن الثالث الهجري (٢١٣ - ٢٧٦هـ). وكانت ثقافته متنوعة تدور حول علوم اللغة والتفسير والفقه كما تدور حول الرواية والأدب. فقد كان على علم لما ألم به المثقفون في عصره من اتجاهات أجنبية: فارسية ويونانية وهندية وغيرها من ثقافات الشعوب العريقة في الحضارة، وانعكس ذلك على مؤلفاته المختلفة مثل أدب الكاتب و عيون الأخبار و الشعر والشعراء. وقد اشتملت مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) على آراء ومقاييس هامة في نقد الأعمال الأدبية وكانت تعتبر في عصره آراء حرة متقدمة. كما كانت ثورة في الدراسات الأدبية والنقدية. وقد أراد ابن قتيبة بهذه المقدمة أن يحدد منهجه المستقل في مجال النقد الأدبي. وهدف هذا البحث هو دراسة تحليلية لهذه المقدمة، وتوضيح منهج ابن قتيبة وبالتالي مقياسه في النقد الأدبي.

أصول منهج ابن قتيبة في النقد الأدبي:

إن ابن قتيبة هو أول من توسع في بحث النقد الأدبي العربي بروح العلم وحاول الارتقاء به الى طور جديد يكون فيه علما له قواعد وأصول يعرفها الناقد ويلتزم بها عندما يقوم بنقد العمل الأدبي والحكم عليه. ولهذا نراه يضع منهجا على أصول كانت يجهلها العلماء الذين كانوا بدافع العصبية للتقديم يحكمون بين العصرين لا الشعرين. وهي أصول لها أهمية

كبيرة في مجال النقد الأدبي. وهذه الأصول التي أشار إليها ابن قتيبة في مقدمة كتابه " الشعر والشعراء " يقول:

"ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقلم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظهما، ووفرت عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأي قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجية في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: " لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ". ثم صار هؤلاء قدما عندنا ببعده العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأبي نواس وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول وفعل ذكرناه، وأثينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه كما أن الردي إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه.

ولا أحسب أحدا من أهل التمييز والنظر نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره" (١).

يلاحظ الباحث في هذه العبارات أربع نقاط هامة جعلها ابن قتيبة أصولا لمنجهه في نقد العمل الأدبي، وهي:

(١) استقلال الفكر واستقلال الرأي:

يؤمن ابن قتيبة باستقلال الفكر وإبداع الرأي في نقد الأعمال الأدبية. وهو يعمل فكره فيما أمامه من نص أدبي وينتهي منه إلى رأي يرضي ضميره، ولا يركن إلى رأي سابق يقلده ويحتديه فهو إذن مجتهد ومبدع وصاحب رأي وليس من أولئك الأتباع الذين يشلون عقولهم لحساب الآخرين.

(٢) التسوية والعدل :

وهو يدعو الناقد عند الحكم على الشعراء ألا يستحسن باستحسان غيره وألا ينظر إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر بعين الإحتقار لتأخره، بل ينظر إلى الفريقين بعين العدل ويعطي كلا حقه. وبذلك يلغي ابن قتيبة عنصر الزمن في النقد الأدبي ويطغى على هذا القيد الوهمي الذي تعبد به العلماء الآخرون. إذن إنه يدعو في منهجه إلى التسوية والعدل وعدم التفريق بين قديم وحديث إلا بالتقييم. فالشعر القديم قد

يكون جيدا وقد يكون رديئا، والشعر المحدث قد يكون جيدا وقد يكون رديئا كذلك. وعلى رأيه كل قديم كان حديثا في زمنه.

(٣) السمة الجمالية :

إن السمة الجمالية هي أساس الحكم ودعامة القضاء الفني عند ابن قتيبة، فلا تصح نسبة الفن إلى أديب شريف أو وضع. فدعائم الفن داخله فيه وليس في أمور خارجه عنه.

(٤) الجودة :

إن جودة العمل الأدبي هي دعامة وأساس المفاضلة والتقديم في رأي ابن قتيبة، فالكثرة وحدها ليست سببا في المفاضلة.

هذه هي القواعد والأصول التي اقترحها ابن قتيبة لمنهجه في نقد الشعر، تكاد تكون أصح قواعد في تاريخ النقد الأدبي العربي. وهي مقاييس تتوخى الموضوعية والجيدة تجاه النص الأدبي الذي ينبغي أن يقدر على أساس ما تضمنه من قيم فنية وجمالية دون اعتبارات القدم أو الحداثة أو شهرة صاحبه.

هذه المقاييس التي هي أصول منهج ابن قتيبة في نقد الشعر كانت ثورة في الدراسات الأدبية والنقدية في العصور التالية، لأن كبار الكتاب أمثال قدامة بن جعفر والثعالبي وابن رشيق قد عنوا بها وفصلوا في النزاع بين المدرستين القديمة

والحديثه وأحرزوا للجديد نصرا نهائيا مؤزرا.

أصول الأحكام النقدية عند ابن قتيبة:

أصبح النقد الأدبي كعلم مستقل عند ابن قتيبة. فوضع له منهجا يحتوي على أصول وقيود وضوابط ، وتكون عناصر الأدب في بنيته ومعانيه وجماله الفني الذي لا يدرك بالذوق فقط ، ولا يتأتى تصويره باللفظ فقط في كثير من المواطن ، يكون ذلك كله معينا، له أصول ونعوت وحالات. فعلى الناقد أن يلم في هذه الأمور قبل نقده للعمل الأدبي. وانطلاقا من هذا الأساس ، وضع ابن قتيبة - ولأول مرة في تاريخ نقد الشعر - قواعد وضوابط وأصولا للأحكام النقدية ويمكن إيجازها في النقاط التالية :

(١) تنوع الشعر:

إن الشعر من حيث صناعته الفنية ليس نوعا واحدا، وإنما هو أربعة أنواع في رأي ابن قتيبة. ولهذا على الناقد أن يراعي هذا الأصل عند تقييمه ونقده لأي نص شعري ، لأن لكل نوع ميزات بها يحكم له أو عليه . وعن هذا يقول ابن قتيبة:

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: (٢)

أولا - ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن

حجر:

أيتها النفس أجملني جزعا

إن الذي تحذرين قد وقعا

وكقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها

وإذا ترد إلى قليل تقنع

ثانيا - وضرب منه حسن لفظه وقصر معناه، كقول جرير:

ولما قضينا من مني كل حاجة

ومسح بالاركان من هو مسح

وشدت على حذب المهاري رحالنا

ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف، الأحاديث بيننا

وسالت بأعناق المعطي الأباطح

ويقول ابن قتيبة تعليقا على هذه الأبيات : هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع. وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح (٣).

ثالثا - وضرب منه جاد معناه وقصر لفظه ، كقول لبيد بن ربيعة:

ماعاتب المرء الكريم كنفسه

والمرء يصلحه المجلس الصالح

وعلق على هذا البيت «قائلا: هذا وإن كان جيد المعنى

والسبك فإنه قليل الماء والرونق» (٤).

وكقول الفرزدق

والشيب ينهض في الشباب كأنه

ليل يصبح بجانيه نهار

رابعا - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول

الأعشى :

وما غدوت إلى الحانوت يتبعنى

شاو مثل شلشل شول

ويعلق عليه : « هذه الألفاظ الأربعة فى معنى واحد ،

وكان قد يستغنى بأحدها عن جميعها ، وما ذا يريد هذا البيت

إن كان للأعشى أو ينقص » (٥).

استند ابن قتيبة في تقسيمه للشعر إلى تقسيم عقلي ونزعة
تقريرية منطقية يستهدف الدقة في التقسيم وصحته. كما أدرك
أن جودة الشعر وعدمها ترجع إلى الشعر نفسه، إلى ألفاظه
ومعانيه. ومن هنا جاء تقسيمه الشكلي للشعر الذي يرجع فيه
الجودة والرداءة إما إلى اللفظ والمعنى معا أو إلى اللفظ وحده أو
إلى المعنى وحده.

ما الذي كان يعنيه ابن قتيبة من كلمتي اللفظ والمعنى؟
ليس من شك في أن الأبيات الشعرية التي استشهد بها لكل
نوع في تقسيمه للشعر كفيل بأن تكشف لنا عن حقيقة اللفظ
والمعنى عنده، فإذا تركنا الضرب الأول من الشعر الذي حسن
لفظه وجاد معناه إلى الضرب الثاني الذي حسن لفظه وقصر
معناه. وأورد له الأبيات الثلاثة المذكورة (ولما قضينا من منى
كل حاجة ... الخ) وقال تعليقا عليها بأنها أحسن شيء
مخارج ومطالع ومقاطع، فكان كل ما فيها من الجمال إنما
يعود إلى الشكل الخارجي للألفاظ. وهذا واضح من كلماته
ان ما يعزوه من حسن الألفاظ ليس إلا تكوينها الصوتي
والموسيقي وما يكون بينها من إيقاع حسن، أو من تلاؤم في
المخارج والمطالع والمقاطع. فكان كل ما ينسب للفظ عند ابن
قتيبة إنما هو وقع الكلمات في الأذن وحسن تأثيرها على
السمع وبالرغم من كل هذا يرى أن هذه الأبيات قد قصر
معناها.

وإذا كان المعنى عند ابن قتيبة شيئاً آخر فما هو؟ ومن يريد الإجابة على هذا السؤال لا بد أن يسعى إلى الضرب الثالث من الشعر الذي جاد معناه وقصر لفظه. وبدراستنا للشواهد التي تمثل بها لهذا النوع نرى أن ابن قتيبة لا يعتبر الشعر ذا معنى إلا إذا اشتمل على معنى أخلاقي أو فكرة فلسفية أو حكمة أو مثل ، أما ما عدا هذا من مجرد التصوير لحالة نفسية أو التعبير عن موقف نفسي فلا يعد عنده معنى. والدليل على ذلك شواهد النوع الثالث من الشعر وشرحه لأبيات جرير، فقد قال في شرحها: ... "وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث ، وسارت المطي في الأبطح" (٦). هذا الشرح وحده كفيلاً بأن يرينا المقصود بكلمة المعنى عند ابن قتيبة. إنه قد أطال التفتيش في هذه الأبيات فلم يجد فيها حكمة أو مثلاً أو فكرة أخلاقية أو فكرة فلسفية، فوسمها من أجل ذلك بالقصور والعجز. نعم، ليس فيها ما في بيت أبي ذؤيب الذي استشهد به على ما حسن لفظه وجاد معناه على السواء للضرب الأول من الشعر والذي ينطوي على حكمة إذ يقول :

والنفس راغبة إذا رغبتها

وإذا ترد إلى قليل تقنع

وليس فيها كذلك ما في بيت حميد بن ثور الذي اعتبر
من أمثلة الضرب الأول :

أرى بصري قد رأبني بعد صحة

وحسبك داء أن تصح وتسلما (٧)

وليس فيها أيضا ما في أبيات الحزين الكناني التي يمدح
بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان من ائتلاف وانتظام بين
صفات المدح التي جمعها الشاعر في البيتين، ومن مهارة في
الجمع بين الحياء والمهابة بطريقة بارعة، أحسن فيها ابن قتيبة
بأن الشاعر قد ضرج علينا فكرة جديدة حين جمع بين المؤتلف
والمنتظم من الصفات المرتبطة بمعنى الهيئة في قول الشاعر:

في كفه خيزران ريحه عبق

من كف أروع في عرنيه شمم

يغضي حياء يغضي من مهابته

فما يكلم إلا حين يتسم (٨)

وأغلب الظن أن الذي أعجب ابن قتيبة في قول أوس بن

حجر:

أيتها النفس أجملني جزعا

إن الذي تحذرين قد وقعا (٩)

ليس هو التعبير عن حالة نفسية استطاع الشاعر أن يحققها تحقيقاً رائعاً في كلماته البسيطة عندما اتسع الاحساس بالجزع على الموت لصاحبه وللوعة لفراقه ، ذلك الفراق الذي ظل يشغل ذهن الشاعر أمداً طويلاً . فهو مشفق على نفسه من تلك اللحظة التي يبلغ فيها القضاء أجله ، ويختطف فيها الموت صاحبه منه ، هذا الترقب المرير المزدوج بالاشفاق والقلق والخوف ، ما الذي أحس الشاعر عنه بقوله " إن الذي تحذرين قد وقع " . وأقول أغلب الظن أن ابن قتيبة لم يعجب في البيت بهذه المشاعر كلها وإنما الذي أعجبه فيها أنها حملت حقيقة من الحقائق ، وهي عجز الإنسان أمام قوة الموت . إذن ، مفهوم المعنى عند ابن قتيبة هو الأفكار الخلقية الخاصة والفلسفية والحقائق والطرائف . أما مجرد التصوير الفني لحالة نفسية أو شعورية خاصة فليس من المعنى في شيء . وعلى أساس من هذا التحليل لمفهوم كلمة اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة نرى أنه قد سار في تصويره للشعر وارتباط مفهومه لديه بالنظرة المنطقية للغة ، كما سار أيضاً في فكرة استقلال المعنى عن اللفظ واستقلال اللفظ عن المعنى .

(٢) مدلول اللفظ والمعنى :

لاحظنا في دراستنا لشواهد ابن قتيبة التي احتج بها في تنوع الشعر أن لكل من اللفظ والمعنى مدلولاً خاصاً . فمدلول اللفظ عنده يعني النظم والتأليف الممثل في اللفظ والوزن

والروي . وعلى هذا عندما أشار في الأضرب السابقة إلى حسن اللفظ فإنه يعني صحة الوزن وحسن الروي واللفظ المفرد المتخير أو بعبارة أخرى يعني الأسلوب . ونعوت الحسن في اللفظ المفرد عنده فيتمثلها في كثير الماء والرونق ، والسهولة ، وحسن المخارج والمطالع والمقاطع ، وقربها من إفهام العوام وبعدها عن التعقيد والاستكراه (١٠) .

أما مدلول المعنى عنده فيعني الفكرة الخلقية أو الفلسفية التي يبين عنها البيت أو الأبيات أي إعطاء المضمون الفكري لها .

وقد أوضح مدلول اللفظ والمعنى في تعليقه على بيتين عدهما الأصمعي في مختاراته وهما :

هل الديار أن تجيب صمم

لو أن حيا ناطقا كلم

يأبى الشباك الاقورين ولا

تغبط أخاك أن يقال حكم

في تعليقه على هذين البيتين يقول ابن قتيبة : «والعجب عندي من الأصمعي إذ أدخله في متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروي ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى» (١١) .

(٣) تقسيم الشعراء:

إذا كانت دراسة اللفظ والمعنى من أصول النقد التي تتصل بصورة الشعر، فإن هناك أمرا هاما ما يتصل بروحه. ومن أجل هذا نجد ابن قتيبة يقسم الشعراء إلى متكلفين ومطبوعين، ثم يفصل القول عنهما من وجهة نظره فيقول: «... فالتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة» (١٢).

ويعرف الشاعر المطبوع قائلا: «والمطبوع من الشعراء من سمع بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر» (١٣).

والظاهر هنا أنه في تقسيمه الشعراء إلى متكلفين ومطبوعين يقسم بالتالي الشعر نفسه إلى متكلف ومطبوع. وذكر أمارات للشعر المتكلف. وهو في كل ذلك يحرص على تحديد الشعر من أطرافه، وتحديد عناصره ما ظهر منها وما استتر.

ويعتقد ابن قتيبة أن الشعراء يتفاوتون في ملكة الشعر تفاوتاً كبيراً وأن الينبوع الشعري عندهم يتفاوت غزارة ونضوباً، وأن الشاعر المطبوع متى وردت إليه المعاني وتتابعت آلفاظه وتتابع في سهولة وتدفق وعن فطرة وإسماح، وأن الإبانة عند

المطبوعين تكاد تصاحب التفكير . وبهذا نستطيع أن نقدر روح الشعر وإن كان جيدا محكما، ونتعرف: أمتكلف هو أم مطبوع، وبهذا نقف في الشعر على سره ، أو كنهه ، وأرق الأمور فيه، وأقربها اتصالا به . وأمارات الشعر المتكلف ترجع إلى أمرين : إلى الروح والسليقة والطبع ، وإلى التعبير والإبانة . وهو في نقد الشعر يحيل القارئ على ما له من ذوق وحسن يدرك بهما ما نال الشاعر من طول التفكير، وشدة العناء، ورشح الجبين، فجمود النفس أو ركوده ، والجفوة التي تحدث بين الشعر وروح قارئه، والشيء الذي يشعر به القارئ كأنه صاعد جبلا حين يقرأ، كل ذلك من أمارات الشعر المتكلف، وكل ذلك دليل على أن الطبع غير قوي في الشاعر، وأن شعره لم ينبعث عن فطرة خالصة، وقلب محتاج . كذلك يظهر التكلف في الإبانة والإفصاح : فكثرة الضرورات في النظم من مد المقصور، وتسهيل المهموز، وصرف الممنوع من الصرف والترخيم في غير النداء، كثرة ذلك من علامات التفكك . كما أن منها غموض الكناية ، والخضوع لقافية جائرة ، وحذف ما لا بد ذكره ، وذكر ما بالمعنى غنى عنه .

ولم يبين ابن قتيبة أمارات الشعر المطبوع ، ولكنها تؤخذ ضمنا مما سبق ، ومن كلامه على المطبوعين من الشعراء . فالشعر المطبوع هو الذي صدر عن نفس تجرد ما تقول ، وانبعث عن سليقة ، ووفق الشاعر فيه إلى الإبانة المصقولة الواضحة ،

على أن من الصعب تحديد أمارات الشعر المطبوع ، لأن ميادين الطبع والشعور والجودة فسيحة متنوعة .

والظاهر إن ابن قتيبة يقصد بالطبع في الشعر بمعنى الارتجال ، وأن الشاعر المطبوع يكاد يكون قاصرا عنده على المرئجل الذي يقول على البديهة دون إعداد ، فمن أعد شعره وهذبه ونقحه كان متكلفا . فالتكلف هنا مرادف الصنعة في الشعر كما هي عند زهير والحطيئة ، وكذلك الطبع مرادف الارتجال . ومن الملاحظ أن ابن قتيبة يخلط هنا من ناحية بين الصناعة والتكلف ومن ناحية بين الطبع والارتجال .

(٤) دواعي وبواعث الشعر:

هناك أمور أخرى بجانب ما سبق ذكره لها صلة عميقة بالنقد الأدبي عرض لها ابن قتيبة في مقدمته كالحالات النفسية وعلاقتها بالشعر والأوقات ذات تأثير في المزاج الشعري . ولاشك أن هذه البواعث لها دور فعال وتأثير كبير في قول الشعر وروحه . وقد تناولها ابن قتيبة من الجوانب المختلفة فيمكن إيجازها في النقاط التالية:

أ- من جانب الحوافز النفسية الدافعة لقول الشعر كالطمع والشوق والطرب والغضب وما يثير بعض هذه الحوافز كالشراب والمناظر الطبيعية الخلافة .

ب - من جانب العلاقة بين الشاعر والزمن، لأن بعض الأوقات ذو تأثير خاص في المزاج الشعري والتي وجود فيها الشعر عن سخاء ويهطل على قرائح الشعراء كأول الليل قبل تفشى الكرى. ويتحدث عنها ابن قتيبة بقوله: " وللشعر أوقات يسرع فيها آتية ، ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تفشي الكرى ومنها صدر النهار قبل الغذاء ومنها يوم شرب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكاتب" (١٥) . ولهذين الجانبين أثر كبير في التفاوت بين أشعار شاعر واحد ، فبعض الحالات النفسية والجسدية ، كالغم وسوء الغذاء تمنع من قول الشعر، واختيار وقت من غير الأوقات المشار إليها لا يصلح كذلك ، ولكن الشاعر قد يضطر إلى التقاضى عن الحالة الصالحة والوقت الصالح فيكون ما ينظمه حينئذ مختلفا متفاوتا. وهنا يعود بنا الذكر إلى أن الأصمعي عندما علل التفاوت في شعر حسان بن ثابت نسب ذلك إلى الموضوع ، ولما عرض ابن سلام الجمحي نسب ذلك إلى اختلاف القائلين أي الإنتحال(١٦) . أما ابن قتيبة فإنه ذهب إلى التعليل النفسي في ذلك . ولعله كان في هذا أدق فهما للطبيعة الإنسانية من صاحبيه .

(٥) عيوب الشعر:

تحدث ابن قتيبة في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) عن عيوب الشعر التي تتصل بالوزن والإعراب وكذلك تحدث عن

الضرورات التي يرتكبها الشعراء. فمن عيوب الوزن التي تحدث عنها تتعلق بالقافية وهي: الإقواء (وهو اختلاف حركة الروي من حركة ثقيلة كالكسرة إلى أخرى تشبها في الثقل كالضمة)، والإكفاء (وهو اختلاف الروي بحروف متقاربة المخارج كالنون والميم)، والسناد (وهو اختلاف الإشباع في بيت من قصيدة واحدة)، والإيطاء (وهو أن يعيد الشاعر القافية بلفظها ومعناها قبل أن يفصل بينهما سبعة أبيات)، والإجازة (وهي اختلاف الروي بحروف متباعدة المخارج كالراء والباء).

ومن العيوب في الإعراب ضرورات النظم كتسكين المتحرك وقصر الممدود وتصريف ممنوع من الصرف وترك الهمز من المهموز. وبالإضافة إلى ذلك، نصح ابن قتيبة الشعراء المحدثين بقوله: « وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحش الكلام الذي لم يكثر واستعمال اللغة القليلة في العرب » (١٨). وكذلك ينصح الشاعر بأن لا يعتمد وزنا مضطربا.

خاتمة:

إن منهج ابن قتيبة في نقد الشعر يختلف كل الاختلاف عن سائر مناهج العلماء الذين سبقوه أو عاصروه. فهو لم يأخذ بفكرة الطبقات كما أخذها ابن سلام الجعفي وغيره من العلماء. ولم يتخذ الزمن مقياسا فنيا لتوزيع الشعراء في الطبقات والمفاضلة بينهم. ولم يرض بتفضيل كثرة الشعر

وتعدد أغراضه على الجودة . إن هذه المعايير الجديدة كانت ثورة على المقلدين . إنما هي كانت ثورة علمية متقدمة في تاريخ النقد الأدبي . والواقع أن الفضل في السير بالنقد الأدبي العربي يرجع إلى ابن قتيبة من ناحيتين : ناحية الروح العلمية التي صدر عنه وهذه روح صائبة في دعوته إلى تحكيم المنظر الشخصي والاستقلال بالرأي وتقدير الأشياء في ذاتها على نحو ما رأينا هذا العالم الناقد يتحدث عن الشعر القديم والمحدث ويرفض أن يفضل القديم لقدمه ويرذل الحديث لحدثه . ثم من ناحية الذوق الأدبي ونقد الشعر.

ولا يعنى هذا أن ابن قتيبة آراءه كلها سليمة ومسلمة عند الجميع بل هناك بعض نظراته قاصرة، وبالتحديد قضية اللفظ والمعنى عنده، وهي استقلال اللفظ واستقلال المعنى ، والمعنى عنده فكرة أخلاقية أو فلسفية . وهذا من القصور . ولكن الأصل في العلاقة بين اللفظ والمعنى كشفري مقص ، والتساؤل عند جودة أحدهما كالتساؤل عن أي الشفرتين أقطع . ونظرة ابن قتيبة إلى المعنى هي نظرة الفقيه . وهي نظرة ضيقة ، لأن المعنى ليس فكرة أخلاقية أو فلسفية فقط بل يشمل أكثر من ذلك . وهو يشمل أي تصوير للحياة البشرية من جميع النواحي وما يتصل بها.

ومع كل هذا إن مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة تعد من أهم مراجع النقد الأدبي العربي وأول محاولة نقدية

متقدمة . استطاع ابن قتيبة بفضل روحه العلمية وثقافته الواسعة أن يضع القواعد والمعايير للنقد الأدبي العربي ، وكل ذلك كان له أثره وقيمته لدى من أتوا بعده من النقاد ، وكانت استنتاجاته تدل على نقد موضوعي أصيل كفاء بنقل النقد الأدبي العربي إلى مرحلة جديدة .

الهوامش

- (١) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، الشعر والشعراء، المقدمة ص ١٠-١١ . بيروت : دار الثقافة، ط ٢، ١٩٦٩ .
- (٢) المصدر السابق ، ص ١٢ .
- (٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ١٤-١٥ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ١٧ .
- (٦) المصدر السابق ، ص ١٣ .
- (٧) المصدر السابق ، ص ١٣ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ١٢ .
- (٩) المصدر السابق ، ص ١٢ .
- (١٠) المصدر السابق ، ص ١٣-١٤ .
- (١١) المصدر السابق ، ص ١٨ .
- (١٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .
- (١٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- (١٤) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

- (١٥) المصدر السابق ، ص ٢٥-٢٦ .
- (١٦) ابن سلام الجمحي ، محمد : طبقات فحول الشعراء، ص ٣٩-٤٠ .
 تحقيق : محمود محمد شاكر، القاهرة: دارالمعارف، ١٩٥٢ .
- (١٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، المقدمة، ص:.....
- (١٨) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، المقدمة، ص ٣٩-٤٥ .
- (١٩) المصدر السابق ، ص ٤٥-٤٧ .